بغية الطلب لابن العديم

الدكتور سامي الدهان

آثار حلب

تنفرد حلب بين بلاد الشرق الأوسط بأنها اسعد المدن الاسلامية حظاً في الآثار ؛ فقد حفظ التاريخ آثارها القديمة على الرغم من النكبات والحوادث والفتوح والغزوات . وما تزال في جنباتها آثار اليونان والرومان ، وكتابات الفراعنة ، وقد انقضى عليها ما يزيد على ألفي سنة .

ويستطيع مؤرخ الآثار أن يجد الميدان الفسيح لدراساته وبحوثه . فما تزال بين يديه شواهد العلم ، وأمام ناظريه دلائل البنيان . وقد طرق هذا الباب كثير من مؤرخي الفرنجة والمستشرقين وعلماء الآثار ، وظهر من آثارهم كثير من الدراسات بعضها بالانكليزية وبعضها بالفرنسية والألمانية . منها ما يمت إلى منتصف القرن الثامن عشر ، ومنها ما يتصل بالعقد الخامس من القرن العشرين [1] . ولعل أعظمها وأوسعها كتاب الاستاذ (سوفاجه) عن حلب

(١) في كتاب جان سوفاجه عن حلب ، ثماني عشرة صفحة خصها بالمصادر والكتب والوثائق والصورات التي ظهرت عن حلب ومنطقتها .

وتقدم العمران فيها منذ القدم حتى منتصف القرن التاسع عشر (١) .

وهناك كتاب آخر ألفه العالم (هرتزفلد) في ثلاثة اجزاء عن أبنية حلب والكتابات المسطورة عليها (٢) ، وهذا الكتاب يضيف ثروة عظيمة إلى ما نعرف عن آثار حلب وعماراتها ويسجل يداً كبيرة لهذا المؤلف .

كتاب ابن العديم

ولكن الغريب أن المستشرقين الذين كتبوا عن حلب عمدوا إلى الاحجار والأبنية فوصفوها وأرخوها وذكروا ما يلم بها من تاريخ ، وما يطوف حولها من ذكريات علمية واجتماعية وسياسية ؛ ولكنهم لم يرجعوا الى المصدر الثر الخصب في تأريخ آثارها وبنيانها وعماراتها كما يجب ان يرجعوا . فهم يعلمون أن أكبر مؤرخيها في القرن الثالث عشر للميلاد هو كمال الدين ابن العديم ، وهم يعرفون أن خير كتبه عن آثار حلب هو « بغية الطلب في تاريخ حلب » .

وليس معنى هذا أن المستشرقين لم يقدروا الكتاب قدره ، ولكنهم لم يجعلوه أساس ما ينشرون . فقد نشر المستشرق سوفاجه ترجمة كتاب ابن الشحنة عن حلب منذ سنة ١٩٣٣ ونشر مختصراً لترجمة كتاب سبط ابن العجمي عن حلب سنة ١٩٥٠ ؛ وهو يعلم حق العلم أن الأول والثاني أخذا من تاريخ ابن العديم كما أخذ قبلهما ابن شداد ، وأن ليس لهؤلاء الثلاثة فضل التقدم والاصالة .

ويبدو أن المستشرق سوفاجه شعر بمثل هذا ، فسافر إلى استانبول سنة ١٩٣٣ ، وسكن طوب قابو سراي – على حد تعبيره – وهو يعالج هذا الكتاب ويدمن القراءة فيه والنقل عنه . وقد بسط لنا في مقال نشره تلك السنة في مجلة الدراسات الاسلامية خلاصة بحثه ودرسه (٣) .

---

(١) صدر الكتاب في باريس سنة ١٩٤١ في ثلاثمائة صفحة كدراسة في مجلد ، ومعه مجلد آخر للوحات والمصورات ، وعنوان الكتاب كما يلي :

J. SAUVAGET — *Alep, Essai sur le Développement d'une grande ville syrienne des origines au milieu du XIX siècle*, Paris 1941; 302 pages + LXX planches.

(٢) اعلن المعهد الفرنسي بالقاهرة عن قرب صدور هذا الكتاب وعنوانه :

ERNST E. HERZFELD, *Matériaux pour un Corpus inscriptionum arabicarum. Deuxième partie, Inscriptions et Monument d'Alep*, 2 volumes + 1 volume de planches. (IFAO).

(٣) J. SAUVAGET — *Extraits du Bug'yat at-Talab d'Ibn al-'Adîm, REI*, Paris 1933, P. 393 - 409.

ونقل في هذا المقال أسماء بعض الأعلام الذين تغص بهم مجلدات الكتب الثمانية ممن أثروا في عمران المدينة أو أثاروا في تاريخها صفحات هامة . وقد أبدى أسفه الشديد لنقص الكتاب ، فقد قرأ عند ابن الشحنة أن كتاب بغية الطلب يحتوي على جزء هو الأول منه يبحث في « خصائص حلب وفضائلها ومعاملاتها ومضافاتها » (١) فلما فتش عنه في مكتبات استانبول أسقط في يده إذ لم يقع عليه فلم يوفق في وصفه (٢) ، ولو وقف عليه لكان كتابه عن عمران حلب أعمق مما ظهر وأوثق مما كان .

وبعد ثلاث سنوات رحل المستشرق كلود كاهين إلى استانبول وأقام بها كما أقام سوفاجه ، فحصل على هذا الجزء وقال انه في جغرافية البلد (٣) ، ولكنه لم يستعمله في كتابه ولم يستفد منه لبعده عن موضوع « الصليبيين في سورية الشمالية » في العصر الذي عمل له في كتابه .

مؤرخو حلب المعاصرون

هذا جهد المستشرقين في التعريف بالكتاب والاستفادة منه ، ألمعنا اليه لنبين أن هذا الأثر الكبير قد ظُلم في القرن العشرين ظلماً كبيراً لا يحق للعلماء أن يسكتوا عنه . والمؤرخون الحلبيون أنفسهم لم يعتمدوا عليه في تأريخهم لحلب على الرغم من جهودهم البارة في سبيل هذه المدينة ورجالها وأعلامها .

وقد اعتمد المؤلفون الحلبيون نصوصاً وتواريخ متأخرة أخذت عن ابن العديم . فالمرحوم الشيخ كامل الغزي ألف كتابه « نهر الذهب في تاريخ حلب » في أربعة أجزاء طبع منها ثلاثة في المطبعة المارونية بحلب ، ولا يزال الجزء الرابع مخطوطة في بيته تنتظر أن تظهر على النور وتتخذ مكانها بين الكتب القيمة في تاريخ حلب . أما الأجزاء الثلاثة فهي تبحث في عمران المدينة وفي الطوائف الدينية ، والمعاهد ، وتقلب الدول والحكومات منذ مطلع التاريخ حتى عهد المؤلف .

---

(١) « الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب » تأليف ابن الشحنة — طبع يوسف بن اليان سركيس في بيروت ١٩٠٩ ص ٧

(٢) وعبارة الاستاذ سوفاجه هي كما يلي (في الصفحة ٣٩٥ من مجلة الدراسات الاسلامية سنة ١٩٣٣) :
« Il manque en particulier toute la lettre M et le début de l'ouvrage, qui devait comporter une préface et une introduction; cette dernière donnant une description de la ville d'Alep et de ses dépendances, on ne peut qu'en regretter l'absence ».

(٣) CLAUDE CAHEN — *Les chroniques arabes*, Paris 1936, P. 359.

وقد استقى الأستاذ الغزي بعض مادته من العيان فرأى وسجّل ونظر الى الآثار، ونقل لنا ما رأى من هذه العمارات فخص بها الجزء الثاني من كتابه، لكنه لم يطلع على بغية الطلب لابن العديم.

والمرحوم الاستاذ الشيخ راغب الطباخ ألف كتابه « إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء » في سبعة أجزاء، خص القسم الأول من كتابه بتاريخ المدينة كما رآه في الطبري وابن الأثير وابن الحنبلي وابن كثير وابن الجوزي وغيرهم من ألموا بالشام فذكروا حلب بكثير أو قليل. وخصّ القسم الثاني من الكتاب بتراجم الرجال كما وقعت له في المخطوط والمطبوع. لكنه لم يقع على الجزء الخاص بعمران المدينة من بغية الطلب، لذلك اعتذر في مقدمة كتابه عن ذلك بقوله:

« وكنت أود وضع قسمين آخرين يكونان متممين لهذا التاريخ أذكر في قسم محلات حلب، وما في كل محلة من المدارس والجوامع والمساجد والرباطات والخانات وغير ذلك من الأماكن والآثار القديمة، وأتكلم على كل مكان فأذكر اسم بانيه وواقفه وما وقفه وما هو نوع ذلك الوقف وحالة ذلك المكان الآن وحالة وقفه. والقسم الثاني أذكر فيه أعمال الشهباء من البلاد والقرى وأحوالها الماضية والحاضرة وما هناك من الآثار القديمة وبقاياها » إلى أن يقول: « غير أني وجدتُ أن هذا العمل العظيم ليس في وسعي أن أقوم به وحدي، ويحتاج إلى عدة أشخاص من الواقفين على اللغات الأجنبية والآثار القديمة يقومون بسياحة طويلة في هذه الأماكن » [1].

وألف المرحوم الأستاذ ميخائيل أنطون الصقال كتاباً عن حلب كذلك وسماه « طرائف النديم في تاريخ حلب القديم » وهو في ثلاثة أجزاء. وهذا الكتاب ما يزال مخطوطاً، وهو لم يعتمد على بغية الطلب لابن العديم.

وهكذا نستطيع أن نقول إن المستشرقين والشرقيين ظلموا ابن العديم في القرن العشرين فلم يأخذوا عنه ولم يعتمدوا عليه، وإنما اخذوا بالمصادر التي استقت منه. اما القدماء الذين أرخوا في حلب فقد جعلوه أساس كتاباتهم ونقلوا عباراته نقلاً أميناً في كثير من المواقع، لكنهم لم يستنفدوا ما في الكتاب فهم بذلك لا يغنون عنه. ويحسن بنا أن نشير إلى أن المؤرخين المعاصرين اخذوا من هذه المصادر من غير ترتيب علمي أو تبويب نقدي. ولذلك نستعرض هنا هذه المصادر التي أخذت من بغية الطلب لندلك على اثر الكتاب في مؤرخي حلب منذ القرن السابع الهجري حتى القرن العاشر الهجري.

---

(١) إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ج ١ ص ٩

مؤرخو حلب القدماء

منذ القرن السابع للهجرة بدأ مؤرخو حلب بالتعقيب والتذييل على بغية الطلب لابن العديم. فقد ألف ابن شداد بعد عشرين عاماً تقريباً من وفاة ابن العديم كتابه « الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء أهل الشام والجزيرة »(١) وبحث فيه عن حلب ودمشق ولبنان وشرقي الأردن وفلسطين والجزيرة. ولن نتحدث هنا إلا عن الجزء الخاص بحلب، فقد جعل قبلته فيه كتاب ابن العديم ولم يغادر كبيرة فيه إلا نقلها وأخذ منها لكتابه. وقد تفرقت نسخ هذا الجزء في استانبول وروما ولندن ولننغراد. وإن طبعة علمية لهذا القسم تعطينا من غير شك صورة مصغرة عن بغية الطلب، يُضاف إليها ما رأى ابن شداد من جوامع ومساجد وابنية تجددت لعهده أو دثرت في زمنه؛ وفي ذلك من الخير لدارس الآثار ما لا ينكره باحث.

وألف ابن خطيب الناصرية في القرن التاسع للهجرة(٢) كتابه « الدر المنتخب بتكملة تاريخ حلب » وقد افتتحه بذكر خطط المدينة ثم عقب على ذلك بتراجم الرجال. والكتاب ذيلٌ لبغية الطلب، قلده في « طوبوغرافية البلد » ثم أتم التراجم من وفيات ٦٥٨ ﻫ إلى منتصف القرن التاسع للهجرة.

ومخطوطات هذا الكتاب قد انتشرت في برلين وغوطا ولندن وكوبنهاغ وباريس وحلب ولم يطبع منه شيء حتى اليوم على الرغم من اهميته وسعة التراجم التي استوعبها. وقد اخذ في خطة تأليفه بأسلوب ابن العديم في بغية الطلب.

وقد ألف سبط ابن العجمي كتابه عن حلب « كنوز الذهب في تاريخ حلب »(٣) على غرار بغية الطلب، وقسم فصوله وأبوابه كما فعل ابن العديم وزاد عليه ما وقع لهذه الأبنية منذ وفاة ابن العديم ٦٦٠ ﻫ حتى أواخر القرن التاسع للهجرة. وكنوز الذهب صورة للبغية إلا في ايراد الأحاديث والأسناد، ينقل عن ابن العديم ما وسعه، ويصف لعصره ما يرى وما يسمع، حتى لكأن كتابه يشتمل على أكثر ما في البغية. فهو الكتاب الفذ في آثار البلد وعمرانه؛ والفضل في بلوغه هذه الدرجة العلمية ما أخذ به من تقليد مؤرخ حلب ابن العديم.

ومخطوطات هذا الكتاب متفرقة كذلك في مكتبات الشرق والغرب، وقد جمعناها وحققنا النص؛ ونسبنا إلى ابن العديم ما لابن العديم، وعلقنا عليه بما يشفي غليل قارئ الآثار

---

(١) أنظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمن ٨٨٣/١ (توفي ابن شداد ٦٨٤ وهو غير ابن شداد مؤلف تاريخ صلاح الدين.)

(٢) عاش ابن خطيب الناصرية (٧٧٤ ﻫ — ٨٤٣ ﻫ) انظر بروكلمن ٣٤/٢.

(٣) المؤلف هو موفق الدين أبو ذر أحمد الشهير بسبط ابن العجمي الحلبي المتوفى سنة ٨٨٤ ﻫ. انظر بروكلمن ٧٠/٢.

وحين ينتهي طبع الكتاب سيدرك دارس الآثار أية يد يسديها العلم حين تطبع البغية كاملة .

وكتاب الكنوز شديد الشبه بكتاب « الدارس في تاريخ المدارس » الذي ألفه عبد القادر النعيمي المتوفى سنة ٩٢٧هـ ، وبسط فيه أمر المعاهد والمدارس في القرن السابع والثامن والتاسع . وقد نشر كتاب الدارس بعناية الأستاذ الأمير جعفر الحسني في جزءين كبيرين (١) . وهو من أهم النصوص الآثارية لمن يريد أن يتعرف إلى عمران دمشق والمدرسين فيها والكتب التي درست في بلاد الشام .

وقد تلفت الأستاذ سوفاجه إلى كتاب « الكنوز » فترجم مختارات منه إلى اللغة الفرنسية (٢) وعده في المواد الأولية لمن يريد أن يؤرخ عمران حلب وتطور هذا العمران .

وألف ابن الشحنة في الزمن نفسه كتابه « الدر المنتخب بتأريخ مملكة حلب » (٣) فلخص فيه عمل ابن شداد وأضاف اليه ما رآه من البنيان والعمران في زمنه ، وسار فيه على خطة بغية الطلب ، وكتاب الأعلاق الخطيرة ، فكأنه أراد أن يوجز ما جاء قبله وأن يبسطه فيجعله في متناول أبناء عصره . وقد طبع هذا الكتاب أول ما طبع من تواريخ حلب القديمة ، وترجمه الأستاذ سوفاجه (٤) أول ما ترجم من هؤلاء المؤرخين . وهنا نعيد نقدنا في تهافت الناشرين والمترجمين على الكتب المتأخرة واغفال الاصول التي نقل عنها المتأخرون . وقد كان على من أراد أن ينشر لحلب ان يُعنى بالبغية ثم بالكنوز فالأعلاق ليصل إلى كتاب ابن الشحنة . ولكن كتابنا المعاصرين في تاريخ حلب وآثارها لم يتبعوا التسلسل الزمني في هذه التآليف ، ولو فعلوا لعرضوا علينا ما كان لابن العديم وما أضافه إليه ابن شداد وابن خطيب الناصرية ثم سبط بن العجمي وما زاد عليهم ابن الشحنة .

وكتاب ابن الشحنة هو وحده بين الكتب القديمة الذي نشر على الناس نشراً اختلط فيه أصل ابن الشحنة بالتعليقات التي أضافها البتروني إليه ، وجاء ذلك كله مجتمعاً في صعيد واحد في متن الصفحات . فلم يُفصل الناشر ما للمؤلف ابن الشحنة وما للملخص البتروني . وبذلك فقدت هذه الطبعة قيمتها التاريخية ، وتعطلت على ذلك قيمة الترجمة التي أخرجها سوفاجه في

---

(١) ظهر الكتاب في مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، الجزء الأول في ٦٦٥ صفحة ، سنة ١٩٤٨ ، وظهر الثاني في سنة ١٩٥١ ، ٨٣٢ صفحة .

(٢) J. SAUVAGET, *Les trésores d'or de Sibt Ibn al-'Ajami*, IFD, Beyrouth 1950, 195 pages.

(٣) توفي ابن الشحنة سنة ٨٨٣ هـ — أنظر بروكلمن ٤٣/٢ ، وكلود كاهين مجلة الدراسات الاسلامية باريس ١٩٣٦ ص ٣٤٣ .

(٤) J. SAUVAJET, *Les perles choisies d'Ibn ach-Chihna* IFD, Beyrouth 1933, 223 pages

مطلع عكوفه على تاريخ حلب وآثارها . وكان على الناشر والمترجم أن ينظرا الى كتاب ابن الشحنة الكبير « نزهة النواظر في روض المناظر » فهو الكتاب المفصل عن تاريخ الشام كله وحلب بصورة خاصة ، وهو أصل لكتابه الدر المنتخب . وكتاب « النزهة » وصل إلينا وحصلنا عليه لا كما يدعي ناشر ابن الشحنة ومن بعده .

وفي القرن العاشر للهجرة ألف رضي الدين ابن الحنبلي كتابه « در الحبب في تاريخ أعيان حلب »(١) . وليس في هذا الكتاب ذكر للخطط والآثار إلا في عرض التراجم ، وقد خص كتابه بها . وقد ذيل علي ابن خطيب الناصرية في تراجم الرجال الذين قضوا بين سنة ٨٤٠ هـ إلى زمانه . وجعله تتمة كذلك لكتاب « نزهة النواظر » لابن الشحنة وهو جد والده لأمه . وقال في فاتحته : « وفي تاريخي هذا ذكر من عاصرتهم من أهلها أو عاصرت من عاصرهم » ورتبهم على حروف المعجم .

وقد عرف ابن الحنبلي قدر ابن العديم فاخذ بما في كتابه ونقل عنه . ثم لخص كتابه « زبدة الحلب في تاريخ حلب » بعنوان « الزبد والضرب في تاريخ حلب » .

وكتابا ابن الحنبلي وصلا الينا في مخطوطات كثيرة متفرقة في أطراف العالم ، ولكن يد النشر والترجمة لم تمسسها إلى الآن .

وجاء ابن ميرو بعد ابن الحنبلي وألف في مدارس حلب وخططها وتراجم رجالها كتاباً لعصره ما يزال مسوّدة بخط المؤلف .

ولو رحنا نستقصي المؤرخين والكتاب الذين أخذوا من بغية الطلب ولخصوها وأضافوا إليها وذيلوها لطال المقال ، ولكننا أردنا أن ندل على أن كتاب البغية لم يظهر حتى اليوم ، وأنه هو وحده « تاريخ حلب الكبير » وهو وحده ، قبل كل كتاب عن حلب ، جدير بالنشر والترجمة والذيوع . وأن كلّ ما ظهر من كتب الذين نقلوا عنه ولخصوه هو كتاب الدر المنتخب لابن الشحنة ، وأنه نشر نشراً سيئاً إن لم يسئ الى تاريخ حلب فلم يضف إليه كبير إحسان .

ولذلك قلنا في مطلع هذه الدراسة الوجيزة أن على مؤرخي الآثار أن يعكفوا على كتاب بغية الطلب وأن يعبّوا منه وأن يعودوا إليه . فابن العديم شخصية نادرة فذة في تاريخ حلب ، يجب أن نعرض لها بشيء من الترجمة والتفصيل لندرك ما للرجل من باع في الثقافة

---

(١) توفي ابن الحنبلي سنة ٩٧١ هـ ، انظر بروكلمن ٣٦٨/٢ ، ٤٩٥ .

ومن أثر في بلدته ، لعل القارئ يبلغ إلى ما بلغنا اليه من اكبار المؤلف وتقدير أثره « بغية الطلب » الذي نعمل في نشره جاهدين .

حياة ابن العديم (٥٨٨هـ — ٦٦٠هـ)

ولد عمر كمال الدين في حلب سنة ٥٨٨ هـ ، ودرج على ما درج عليه أجداده من حب العلم واتقان الأدب والأخذ بأسباب الشعر والنثر ؛ فشارك فتية العصر المثقفين فيما كانوا يأخذون به من معارف وثقافة . والعصر السابع الهجري كان عامراً بالمؤلفين والعلماء ، وكانت حلب احدى عواصم التأليف والتثقيف ، فاجتمع الى ياقوت الحموي وابن خلكان ، والقفطي ، وابن شداد مؤرخ صلاح الدين الأيوبي ، واجتمع الى غيرهم من فقهاء وأدباء وشعراء .

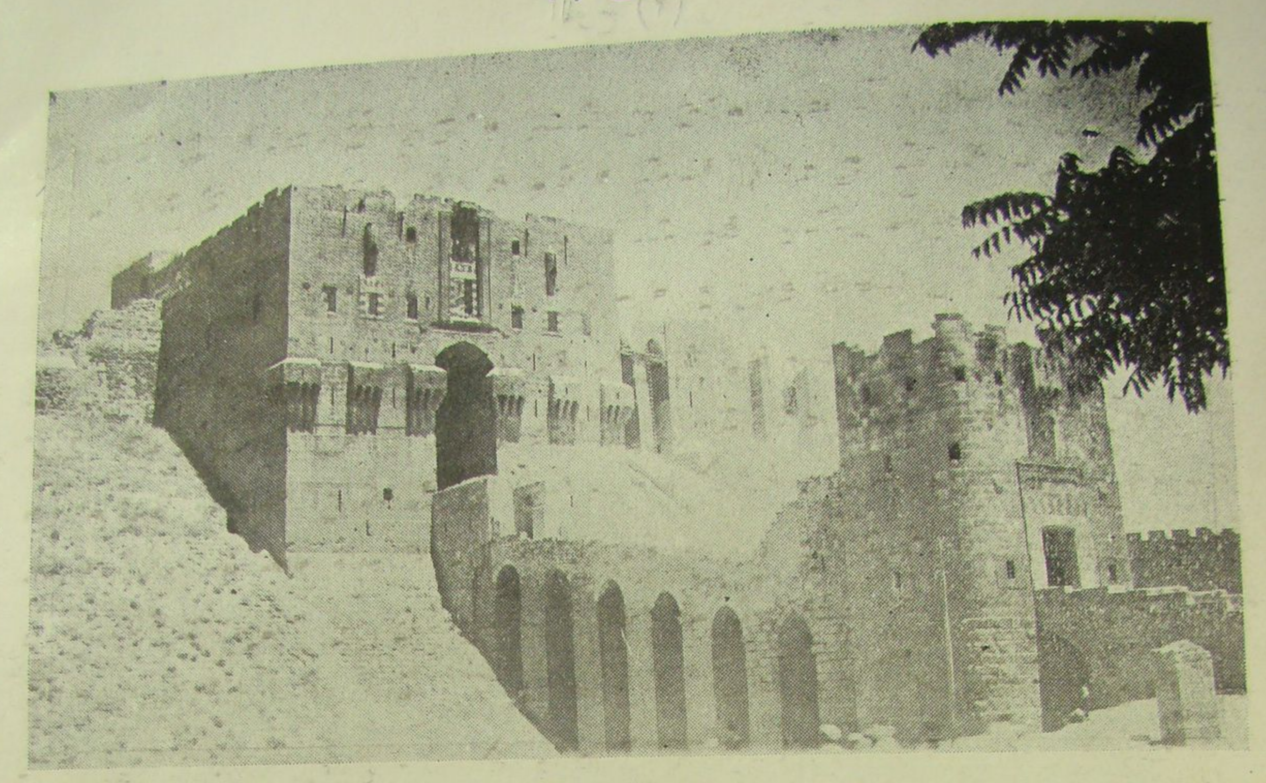
وكانت أسرة الرجل في رخاء ورفاه على الرغم مما في الاسم من مظاهر العدم . وقد حاول ياقوت وحاول ابن العديم نفسه أن يدلا على سبب هذه التسمية فعاجا بغير دليل ، ولبثنا نتساءل عن معنى ابن العديم أهو تصوف وزلفى الى الله ، أم أن آباءه كانوا فقراء فلقبوا بذلك ، ثم زال عنهم الفقر . على أن التاريخ يشير الى عدد من أفراد هذا البيت قد ملكوا القرى واستغلوا الأراضي في أطراف حلب .

ولسنا نريد أن ننتهي إلا إلى شيء واحد ، وهو أن الذين يملكون جاهاً في المدينة يستطيعون أن يعرفوا من أمورها فوق ما يعرف العامة ، فهم يجتمعون الى الصفوة المختارة من أمراء وملوك وعلماء وفقهاء ، وأغنياء ومتمولين . ويستمعون خلال ذلك الى ما يدور من حديث حول أسرار السياسة العليا للبلاد — كما نقول اليوم — فيستطيعون ان يسجلوا هذه الأحداث كما أرادها الرؤساء وكما فسرها المطلعون .

ونحن نريد من وراء هذا كله أن نصل الى أن ابن العديم اتصل بالرجال والعلماء والرؤساء فنقل الينا عنهم ، وسجل لنا ما قالوه حتى ليخيل الى الباحث ان « عمر » اتصل بكل من هبط حلب لعهده ، وتعرف اليه ، وطال اجتماعه به ، ونقله عنه .

وابن العديم عرفنا الى أفراد الأسرة ، ونقل عنهم ، ووصف ما كان لهم من جاه وثقافة ، فقد كان فيهم القضاة والفقهاء والخطباء والأئمة . وللسلطان الديني أثره وقوته في ذلك الزمن . ومناصب القضاء والافتاء والخطابة هي التي كان الشعب ينظر اليها نظر الاكبار والتجلة والاحترام . وعلى القضاة أن يلموا بالعربية وأساليبها ، وفنون الدين والتفسير والحديث ؛ وكذلك كان أفراد آل العديم : قوة في النثر ، وبلاغة في الخطابة ، وعلواً في الشعر ، وبعداً في

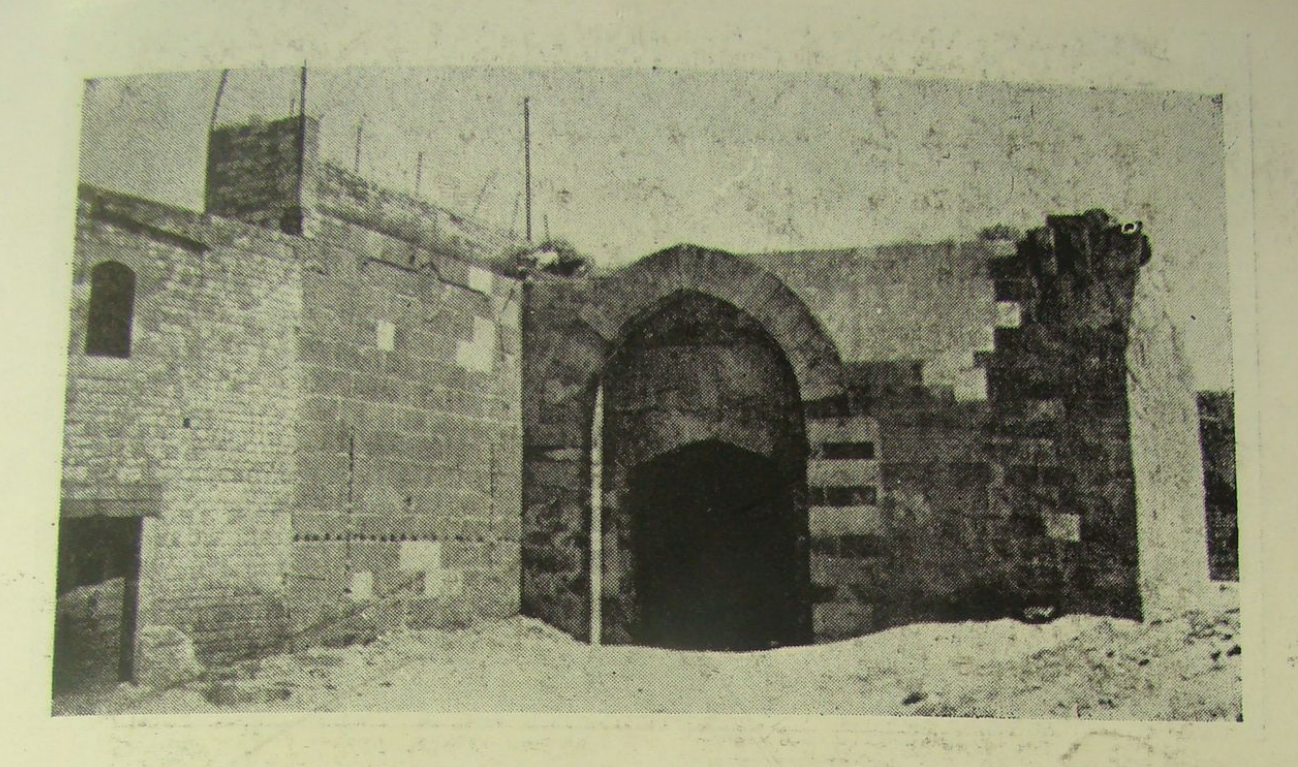
اللوح (١)



١ — منظر عام لمدخل قلعة حلب .

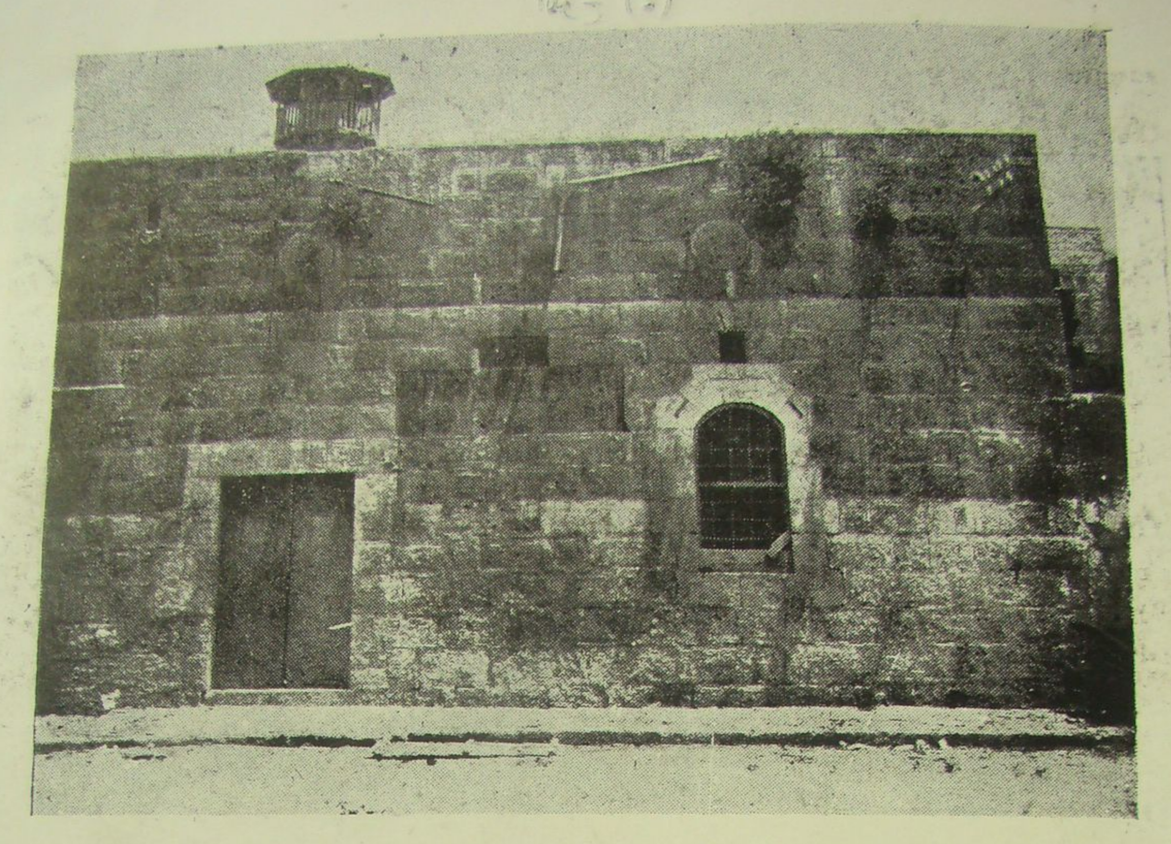
٢ — منظر واجهة الباب الداخلي لقلعة حلب ، وفوقه واجهة قاعة العرش .

اللوح (٢)

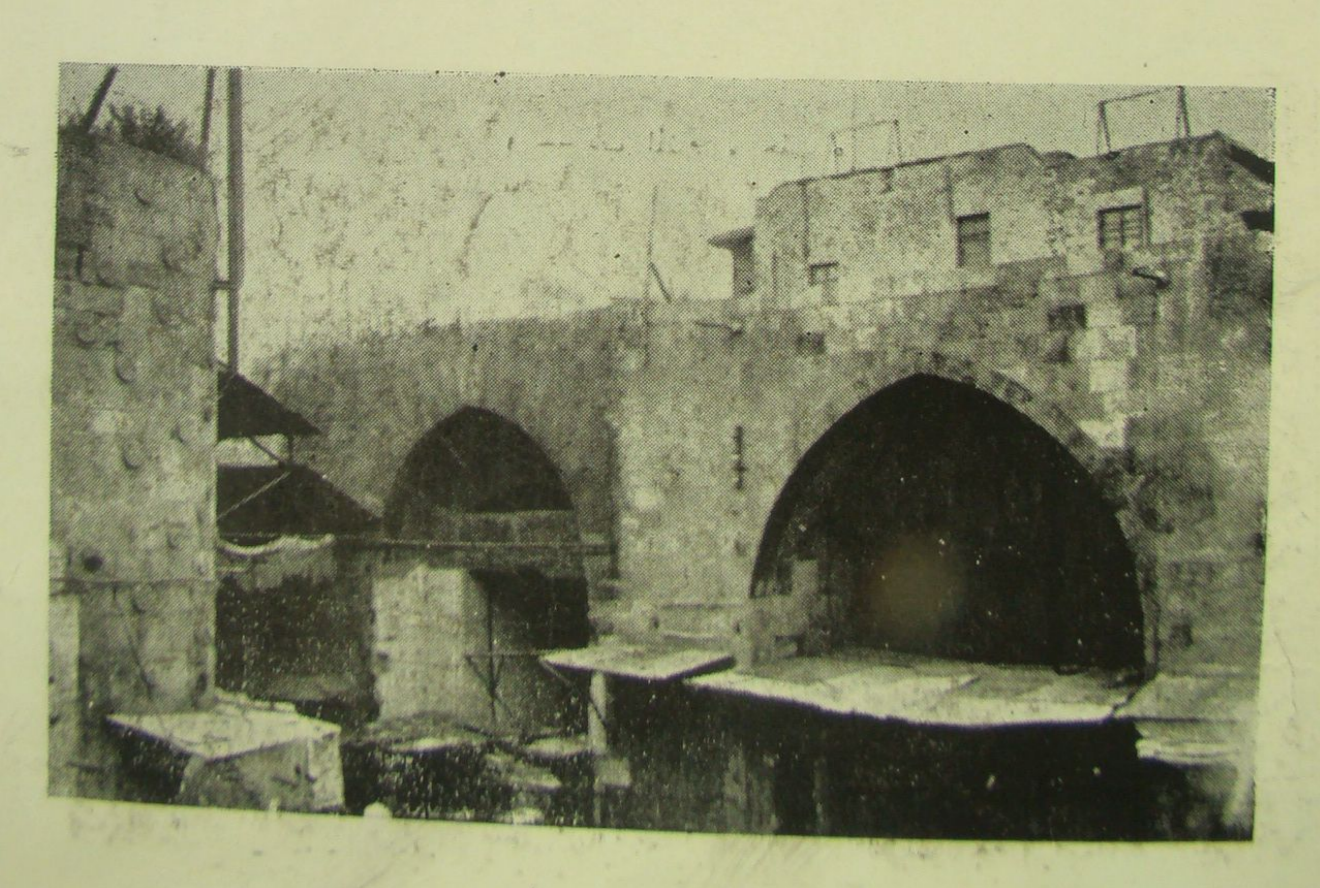


١ ـ باب قنسرين . حلب .

اللوح (٣)



١ ـــ باب الجنان . الواجهة الغربية لجامع العمري . حلب .



٢ ـــ باب النصر . حلب .

اللوح (٤)



١ — باب المقام . حلب .

لذلك نشأ الرجل في وسط يعرف ما يدور في البلد ، وما يقع للأمة ، ويعرف كذلك من تاريخها وعمرانها أكثر من يعرف في البلد . فقد دخل على الملوك وعاش مع الأمراء ، وألف لهؤلاء وهؤلاء ما ألف من كتب .

وأبوه تولى المناصب الرفيعة على عهد نور الدين محمود بن زنكي وأورث ابنه هذه المناصب ، وأعده اعداداً عظيماً للقضاء والزعامة ، فعُني بأدبه ورحل به وزوَّجه ، وهيأ له من أسباب الترف والتفرغ ما استطاع .

وكانت حياة مؤلفنا متصلة بحوادث البلد لا تكاد تنفصل عن تاريخه ، ولا يكاد البلد ينفصل عنه ، فقد سجل لنا أن الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين كان يكرمه ويحسن وفادته . ونقل الينا انه تولى التدريس في المدرسة الحلاوية ، وأنه اجتمع بالملك الصالح أحمد ابن الظاهر غازي ، وأنه اتصل بالوزير القفطي ، وأنه زار مصر وبغداد في سفارات سياسية يمثل بها مليكه ، وينوب عنه في التشاور والتعاقد كما يفعل سفراء الممالك اليوم .

وظل كمال الدين كذلك حتى كانت نكبة هولاكو للشام وتدميره لحلب . فهرب ابن العديم لاجئاً الى مصر ، وفيها لقي حتفه فدفن في القاهرة سنة ٦٦٠ هـ .

كتب ابن العديم

وقد خلف الرجل مؤلفات كثيرة منها في الأدب والتاريخ وما يتصل بهما . وأكثر هذه المؤلفات سلمت ووصلت مخطوطاتها الينا . بعضها في مدح الأطفال وذمهم ، وفي الخط وعلومه ، وفي الطيب والطيبات ، وفي أبي العلاء المعرّي والدفاع عنه .

وأهم هذه المؤلفات كتابان جليلان أولهما « بغية الطلب في تاريخ حلب » وهو في عشر مجلدات ، في كل مجلدة أجزاء كثيرة تضارب الآراء حول عددها . وما نظن أن المؤلف انتهى من تبييضها جميعاً . وهذا الكتاب تفرق في مكتبات العالم الغربي والشرقي ؛ وأكثر أجزائه في مكتبات استانبول .

والكتاب الثاني هو « زبدة الحلب في تاريخ حلب » سطّر فيه تاريخ الشهباء على حوادث السنين منذ القديم حتى سنة ٥٤٠ للهجرة . وقد طبعنا الجزء الأول من هذا الكتاب [1] ،

(١) « زبدة الحلب من تاريخ حلب » تأليف ابن العديم ط . دمشق ١٩٥١ في ٣٦٤ صفحة + ٧٩ مقدمة .

وما يزال الثاني في سبيله الى المطبعة ينتهي بعد قليل ليتم بالجزء الثالث . ويُعد بحق المرجع الفذ لتاريخ سورية الشمالية في معاركها وحروبها ، وحوادثها الداخلية والخارجية خلال ستة قرون من الزمان . وقد أسهبنا في مقدمتنا للجزء الأول من الكتاب بما راينا عنده شفاء الغليل ، فنحيل اليها القارىء الدارس .

ولن نحلّل هذه الكتب ولن نستقصي مخطوطاتها ، فليس هنا مكان ذلك ، وانما أردنا أن ندلّ على اطلاع الرجل وعلو ثقافته في ميادين العلم والأدب لعصره ، لعلنا نبلغ الى الحديث عن ثقافته في الآثار والعمران .

ثقافة ابن العديم

بذلك أدركنا ان الرجل كان يتصل بالمصادر الاسلامية لعهده ، وكان يتصل كذلك بالشخصيات — على حد تعبيرنا اليوم — وذلك هام في بلاد كبلادنا خلال القرون المتوسطة . لأن العلم يعتمد على السماع والنقل معاً ، وهذا ما جعل تاريخ ابن العديم مصدراً فذاً بين المصادر الأخرى في تاريخ حلب .

وزاد قوة الرجل في نظرنا عكوفه على علوم الدين والدنيا ، واتخاذه مكتبة جامعة عظيمة نقل عنها المؤلفون ، وأهدى اليها كتاب المشرق الاسلامى ومغربه كتبهم وآثارهم ، فأصبح لها في حلب ما للظاهرية في دمشق اليوم ، وما للتيمورية في مصر منذ قليل . ولا شك في أن هذه المكتبة شبيهة بهذه المكتبات الباقية في استانبول اليوم ، وقد خلفها القضاة والأمراء والسلاطين ، عامرة بضروب العلوم والفنون الاسلامية .

وقد أخبرنا ابن سعيد المغربي في كتابه المغرب أنه نقل من الدواوين الشعرية فيها ما أثبته في كتابه ، وأهدى اليها ابن سعيد نفسه كتابه « المغرب » . ونحن نعرف كذلك أن ابن العديم قال الشعر وقال النثر وحلّق فيهما جميعاً . أما النثر فقد بسطنا من كتبه ما يدل على علو باعه فيه ، واما الشعر فقد روى منه المؤرخون والأدباء قصائد ومقطعات تدل كذلك على سعة خياله ورقة ديباجته . وقد خلف ديواناً كاملاً ذكر بعض المتأخرين أنه وقع في مكتبة الاسكندرية ، ولكننا زرنا المكتبة فلم نقف له على أثر . ونستطيع أن نحكم على شعره بهذه المقتطفات التي رواها ياقوت في « معجم الأدباء » وابن شاكر في « فوات الوفيات » ، فهي في ذروة الشعر العربي للقرن السابع ، وهي تنظر الى شعر الفحول من كبار شعرائنا كأبي

فراس او المتنبي ، فيها الغزل الرقيق والتشبيب الخالص ، وفيها العفة والبراءة ، والفخر الصادق والمديح الطيب .

وما نستطيع أن نحلل الشعر أو نبسط الأمر فيه ، فقد أنشأنا هذا الكلام لندلّ على ثقافة هذا المؤرخ وأخذه من كل فن بطرف . وقد رأينا انه كان قاضياً وفقيهاً واديباً شاعراً وكاتباً مجوداً . وذلك يمهد لنا الحكم على أسلوبه في تاريخه ، إذ نجد فيه الديباجة الرصينة الأدبية ، والسلاسة الفائقة على اتخاذه سبيل العلماء كما بينا قبل قليل .

أسلوبه في الآثار

ونحن حين نتحدث عن أسلوبه العلمي في التأريخ يجب أن نقف وقفة قصيرة نجلو بها مدى ذهابه فيه وتفهمه له . وقد قلنا ان ابن العديم فعل منذ القرن السابع للهجرة ما قرره علماء الآثار والتاريخ في القرن الرابع عشر اليوم بعد انقضاء ستة قرون على وفاته .

فقد عمل لتاريخ حلب وآثارها ما يصنع الغربيون اليوم لتاريخ المدن وعمرانها ، فاصطنع الأناة والصبر ، واتخذ الهدوء والتدرج في تقرير الحقائق العلمية ، وسلك سبيله الى هذه الحقائق على جسر متين من البحث . فسعى الى المخطوطات والمصادر واقوال المؤرخين قبله ، وبسط تضارب آرائهم حول قضية من قضايا هذا العلم ، فناقش الآراء وحلل المذاهب . فلما انتهى الى الحكم وقف وقفة العلماء يسائل الحجر والسجلات القديمة والنقود الأثرية . فعمد الى الجوامع والمساجد والخانقاهات والرباطات والزوايا والتكايا ، فقرأ الكتابات على واجهتها ، واستخلص من جوانب الأبنية والآثار والرموز والسطور ما يفيد تقرير الحقيقة ، ولم يترك سوراً أو جداراً عليه كتابة عتيقة إلا سعى في حلها واستخلاصها . ولم يثنه عن عزمه ما كان يراه من كتابة باللغة اليونانية او الهيروغليفية أو العربية . فاذا صح أن هرتزفلد وفان برشم وسوفاجه وغيرهم من قارئي الآثار في القرن العشرين يمثلون العقلية العلمية لفهم الآثار ودراستها فابن العديم سبقهم اليه فقرأ قبلهم ما لم يكونوا يقرؤون .

والفرق بينه وبينهم أنه لم يكن يملك الرسم والتصوير الذي يملكون فلم يبرز لنا في كتابه الكبير « بغية الطلب » صورة لما قرأ ونسخة شمسية عما رأى كما صنع علماء الآثار حين عاجوا على صور سورية الشمالية [1] ، فأنشؤوا فيها المجلدات وخصوا آثارها بالصور والرسوم الواضحة .

---

(١) MAX VAN BERCHEM. *Matériaux pour un Corpus inscriptionum arabicarum: Syrie du Nord*, par Moritz Sobernheim, Le Caire 1909.

والمهم الذي نحب ان نبرزه في هذا المكان وان نستلفت اليه نظر مديرية الآثار القديمة هو ان توازن بين ما وصف ابن العديم من آثار وما نقل من كتابات وبين ما بقي اليوم من هذه الآثار والكتابات ، فتكمل الناقص من الأحجار وقد اتى عليها الزمن وتقلبت عليها نكبات الحوادث ، وتحل الغامض من هذه الرموز مستعينة بهذا المؤرخ الآثاري الذي سبق زمنه فخط لأمته ما يخط العظماء لأممهم .

وقبل أن نضرب الأمثلة على ما في بغية الطلب المخطوط ، نحب أن نضع تحت أعين القراء ما ورد في زبدة الحلب الذي طبعناه في العام الماضي ، فقد نقل ابن العديم عن ظهر كتاب عتيق بخط بعض الحلبيين ما يلي (١) :

« رأيت في القنطرة التي على باب انطاكية من مدينة حلب في سنة عشرين وأربعمائة للهجرة كتابة باليونانية فسألت عنها فحكى لي أبو عبد الله الحسين بن ابراهيم الحسني الحراني ايده الله أن ابا أسامة الخطيب بحلب حكى له أن اباه حدثه أنه حضر مع أبي الصقر القبيصي ومعهما رجل يقرأ باليونانية فنسخوا هذه الكتابة ، وأنفذ لي نسختها في رقعة وهي :

« بُنيت هذه المدينة بناها صاحب الموصل والطالع العقرب والمشتري فيه وعطارد يليه ولله الحمد كثيراً » .

ونحن نعرف ان باب انطاكية هذا ما يزال قائماً إلى اليوم ، وان الزمان قد حفظه ، ونستطيع ان نتحرى اثر هذه الكتابة وان نصوّرها على الورق إن كانت ما تزال ، لعلنا نصل من وراء ذلك إلى تأريخ البناء ومعرفة البناة .

واما « بغية الطالب » فقد روى كثيراً من امر هذه الكتابات يقول ابن العديم فيه (٢) :
« وشاهدتُ في المدرسة الحنفية المعروفة بالحلاوية بحلب مذبحاً من الرخام الملكي الشفاف الذي يقرب النصارى عليه القربان ، وهو من احسن الرخام صورة اذا وُضع تحته ضوء بان من وجهه . فسألت الشريف تاج الدين ابا المعالي الفضل ولد شيخنا افتخار الدين ابي هاشم عبد المطلب بن الفضل الهاشمي — وكان نشأ بهذه المدرسة وولي تدريسها بعد ابيه — فقال لي : ان نور الدين محمود بن زنكي احضره من افامية ووضعه في هذه المدرسة ، وعليه كتابة باليونانية فسألته عنها ، فذكر لي انه حضر من ترجمها وفيها مكتوب :

(١) أنظر زبدة الحلب لابن العديم ط. دمشق ١٩٥١ ص ١٤ .
(٢) بغية الطلب ، مخطوطه استانبول بالورقة ٨٥ و .

«عُمل هذا للملك دقلطانيوس والنسر الطائر في اربع عشرة درجة من برج العقرب».
ومديرية الآثار أعرف منا بما صدرت حلب الى المتاحف من احجار وآثار وهي تعرف ما للمدرسة المذكورة من آثار، وتستطيع ان ترجع الى هـذا التاريخ فتحله والى الاسم فتوضحه وتصححه.

ولن نستزيد من هذه المقتطفات في التعريف ببغية الطلب وبين ايدينا فصل كامل شديد النفع عظيم الأثر عن ابواب حلب، خصه ابن العديم بحالة الأبواب في القرن الثالث عشر للميلاد لعهده، يحسن بنا ان ننشره كاملاً لنعرف ما ابقى الزمان من هذه الأبواب على سبعة قرون انقضت في غزوات وحروب ودول شتى.

وقد كتب العالم سوفاجه عن السور والأبواب سنة ١٩٢٩ (١) بحثاً طريفاً اعتمد فيه على نهر الذهب للغزي والدر المنتخب لابن الشحنة وتحقيقات سوبرنهايم، ولكنه لم يقع على هذا الفصل في البغية فهو يستوعب كل ما فات المؤرخ المعاصر. وللقارئ ان يوازن بين بحث ابن العديم وبحث المستشرق:

...

باب في ذكر صفة مدينة حلب وعمارتها
وأبوابها وما كانت عليه أولاً وما تغير منها وما بقي [٦١ و]

سور حلب كان سوراً مبنياً بالحجارة من بناء الروم. ولما وصل كسرى انو شروان
الى حلب واستولى عليها شعث سورها عند الحصار، ثم رمّ ما هدم منه، فبُني بالآجر
الفارسي الكبار — وشاهدتُ مرمته بالآجر الكبار في الأسوار التي بين باب الجنان وباب
النصر — وسترها || السور الثاني الذي ابتناه الملك الظاهر رحمه الله فيما بين باب الجنان [٦١ ظ]
وباب النصر فلا يبين الآن إلا لمن يمر بين السورين. وأظن ان كسرى انو شروان
فتح حلب من هذه الجهة فانها كانت اضعف مكان في البلد. فلهذا كانت المرمّة فيه دون غيره.

وفي اسوار حلب ابرجة عديدة جددها ملوك الاسلام بعد الفتوح، واسماؤهم مكتبة عليها.

وبنى نور الدين محمود بن زنكي فصيلاً (٢) على مواضع من الباب الصغير الى باب العراق

(١) J. SAUVAGET, *L'Enceinte primitive de la ville d'Alep*, dans *Mélanges* IFD, Damas 1929, P. 133–159.

(٢) الفصيل: حائط قصير دون الحصن، وقيل دون سور البلد، يشاد لتوثيق البنيان.

ومن باب العراق الى قلعة الشريف ، ومن باب اليهود ــ الذي يقال له الآن باب النصر ــ الى باب الجنان ، ومن باب الأربعين الى باب اليهود جعل ذلك سوراً ثانياً قصيراً بين يدي السور الكبير .

وامر الملك الظاهر بتجديد سور من باب الجنان الى برج الثعابين ، وفتح الباب المستجد فرفع الفصيل ، وجدد السور والأبرجة على علو السور الأول . وكان يباشر العمارة بنفسه ، فصار ذلك المكان من اقوى الأماكن .

ثم ان اتابك طغرل ابتنى برجاً عظيما فيما بين باب النصر وبرج الثعابين مقابل اتونات الكلس ومقابر اليهود .

ثم ان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن محمد ــ اعز الله سلطانه ــ امر بتجديد ابرجة من باب الأربعين الى البرج الذي جدده اتابك ، فجددت ابرجة عظيمة كل برج منها حصن مفرد ؛ وسفح من السور والأبرجة في الميل الى الخندق فصار || ذلك كله كالقلعة [٦٢ و] العظيمة في الارتفاع والحصانة . وامر ببناء ابرجة كبار من باب الجنان الى باب قنسرين فقويت المدينة بذلك قوة ظاهرة .

قلعة حلب وخندق الروم

واما قلعة حلب فلم يكن بناؤها بالمحكم . وكان سورها اولاً متهدماً على ما ذكره ارباب التواريخ ، ولم يكن مقام الملوك حينئذ فيها ، بل كان لهم قصور بالمدينة يسكنونها .

ولما فتح الروم حلب في سنة احدى وخمسين وثلثمائة لجأ الى القلعة من لجأ ، وستروها بالأكف (١) والبراذع فعصمتهم من العدو لعلوها . وزحف ابن اخت الملك فألقى عليه حجر فقتله ؛ ورحل الدمستق عنها . (٢)

فاهتم الملوك بعد ذلك بعمارة القلعة وتحصينها . وعصى فيها فتح القلعي على مولاه مرتضى الدولة بن لؤلؤ ثم سلمها الى نواب الحاكم ، فعصى فيها عزيز الدولة فاتك على الحاكم ، وقتل بالمركز ، وكان قصره الذي ينسب اليه خانكاه القصر متصلاً بالقلعة والحمام المعروفة بحمام القصر

(١) أكاف الحمار وإكافه : برذعته جمعها آكفة وأُكُف بضمتين .

(٢) أنظر تفصيل الحوادث في « زبدة الحلب لابن العديم » ط. سامي الدهان في دمشق ١٩٥١ ج ١ ص ١٣٦ — ١٣٨ .

الى جانبه ، فخرب القصر بعد ذلك تحصيناً للقلعة [1] . وصار الخندق موضعه .

ودخلتُ انا هذه الحمام وهي دائرة ، فهدمها الملك الظاهر – رحمه الله – وجعلها مطبخا له .

ولما قتل عزيز الدولة صار الظاهر وولده المستنصر يوليان والياً بالقلعة ووالياً بالمدينة خوفاً أن يجري ما جرى من عزيز الدولة . فلما ملك بنو مرداس سكنوا في القلعة وكذلك من جاء بعدهم من الملوك . وحصّنوها لاسيما الملك الظاهر غازي || فانه حصنها وحسنها [٦٢ ظ] وابتنى بها مصنعا كبيراً للماء ، ومخازن للقلعة ، ورفع باب القلعة وكان قريباً من المدينة ، ويصعد منه الى باشورة – وهي موضع باب القلعة الآن – ولها سور من موضع الباب الآن يدور في وسط التل الى المنشار المتصل بباب الأربعين .

وكان في الباشورة مساكن لأجناد القلعة . ورأيتُ في وسطه برجاً كبيراً مبنياً فوق طريق الماء من القناة الى الساتورة التي للقلعة .

وكان على ذلك البرج اسم الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي فخرب الملك الظاهر – رحمه الله – تلك الباشورة وسفّح القلعة من اسفل الخندق الى سورها الأعلى . وكان قد بُني بعض السفح بالحجر الهرقلي وعزم على تسفيحها بذلك الحجر فحالت المنية بينه وبين أمله ، وصده عن مراده ما حضر من أجله .

وكان قد وسع الخندق الذي للقلعة ، وعمّقه وبنى حائطه من جهة المدينة ، ورفع باب القلعة الى مكانه الان ، وعمل له هذا الجسر الممتد فجاء في غاية الحسن والحصانة .

وعمل باباً آخر كان اذا ركب ينزل منه ويصعد ويغلق فلا يفتح الا له ، وهو باب الجبل الذي هو الى جانب دار العدل .

وبنى الملك الظاهر سوراً على دار العدل وفتح له باباً من جهة القبلة تجاه باب العراق وباباً من جهة الشرق والشمال على حافة الخندق وكان يخرج منهما اذا ركب . وبنى دار العدل لجلوسه العام فيها بين السورين : السور العتيق الذي فيه الباب الصغير ، وفيه الفصيل الذي بناه [٦٣ و] نور الدين || وبين السور الذي جدده الى جانب الميدان .

واهتم الملك الظاهر ايضاً بتحرير خندق الروم وهو من قلعة الشريف الى الباب الذي

---

(١) انظر كذلك الدراستين التاليتين :

PLOIX DE ROTROU, *Le nouveau relief de la citadelle d'Alep*, *RAS*, 1931.

PLOIX DE ROTROU, *La citadelle d'Alep et ses alentours*, Alep 1930.

يخرج منه الى المقام . وبنى ذلك الباب ولم يتمه فتمم في أيام ولده الملك العزيز – رحمه الله – ثم يستمر خندق الروم من ذلك المكان شرقاً ثم يعود شمالاً الى الباب الذي جدد ايضاً في ايام الملك العزيز لصيق الميدان ويعرف بباب النيرب . ثم يأخذ شمالاً الى ان يصل الى باب القناة الذي يخرج منه الى بانقوسا وهو باب قديم ؛ ثم يأخذ غرباً من شمالي الجبل الى ان يتصل بخندق المدينة .

وأمر الملك الظاهر برفع التراب والقائه على شفير هذا الخندق مما يلي المدينة ؛ فارتفع ذلك المكان وعلا ، وسفّح الى الخندق ، وبني عليه سور من اللبن في ايام الملك العزيز محمد – رحمه الله – وولاية الأتابك طغرل . وأمر الحجارون بقطع الأحجار من الحوارة من ذلك الخندق فعمق واتسع وقويت به المدينة غاية القوة .

قلعة الشريف

واما قلعة الشريف فلم تكن قلعة بل كان السور محيطاً بالمدينة ، وهي مبنية على الجبل الملاصق للمدينة ، وسورها دائر مع سور المدينة على ما هي الآن . وكان الشريف ابو علي الحسن بن هبة الله الحسيني الهاشمي مقدم الأحداث بحلب ، وهو رئيس المدينة ، فتمكن وقويت يده ، وسلم المدينة الى ابي المكارم مسلم بن قريش . فلما قتل مسلم انفرد بولاية ‖ المدينة [٦٣ ظ]
وسالم بن مالك بالقلعة — على ما نشرحه في ترجمته — فبنى الشريف عند ذلك قلعته هذه ، ونسبت اليه في سنة ثمان وسبعين واربعمائة ، خوفاً على نفسه من اهل حلب ، واقتطعها عن المدينة ، وبنى بينها وبين المدينة سوراً ، واحتفر خندقاً – آثاره باقية الى الآن –[1] .

ثم خرب السور بعد ذلك في ايام ايلغازي بن ارتق حين ملكها واستقل بملكها في سنة ست عشرة وخمسمائة ، فعادت من المدينة كما كانت .

أبواب حلب

واما ابواب مدينة حلب فأولها باب العراق ، سمي بذلك لأنه يسلك منه الى ناحية العراق ثم بعده الى جهة الغرب باب قنسرين سمي بذلك لأنه يخرج منه الى ناحية قنسرين ، وقد

(١) ينقل ابن الشحنة في الدر المنتخب كثيراً مما جاء عن ابن العديم ويضيف هنا : « لكنه خفي جداً لا يظهر ولا يعرف » .

جدد في ايام السلطان الملك الناصر يوسف بن الملك العزيز — اعز الله انصاره — وغير عن وضعه ووسع ، وعمل عليه ابرجة عظيمة ومرافق الأجناد ؛ حتى صار بمنزلة قلعة عظيمة من القلاع الوحلة .

ثم باب انطاكية سمي بذلك لأنه يسلك منه الى ناحية انطاكية .

ثم باب الجنان سمي بذلك لأنه يخرج منه الى البساتين التي لحلب .

ثم بعده باب اليهود سمي بذلك لأن محال اليهود من داخله ، ومقابرهم من خارجه . وهذا الباب غيره السلطان الملك الظاهر — رحمه الله — وكان عليه بابان ، ويخرج منهما الى باشورة يخرج منها الى ظاهر المدينة ، فهدمه وجعل عليه اربعة ابواب ، كل بابين بدركاة على حدة ، يسلك من احدى الدركاتين الى الأخرى في قبو عظيم محكم البناء . وجعل || عليه ابراجاً عالية محكمة البناء ، ويخرج منه على جسر على الخندق . وكان على ظاهره تلول عالية من التراب والرماد وكنائس المدينة ، فنسفها وأزالها ، وجعلها ارضاً مستوية . وبني فيها خانات يباع فيها الغلة والحطب ، وسمي الباب « باب النصر » ومحي عنه اسم باب اليهود فلا يعرف الآن إلا بباب النصر ، وهجر اسمه الأول بالكلية . [٦٤ و]

ثم بعده باب الأربعين ، وكان قد سدّ هذا الباب مدة مديدة ثم فتح واختلف في تسميته بباب الأربعين ، فقيل انه خرج منه مرة اربعون الفاً فلم يعودوا . واخبرني والدي - رحمه الله - انه بلغه انه خرج منه اربعون الفاً فلم يعد منهم غير واحد ؛ فرأته امرأة في طاق في علو وهو داخل منه فقالت له : دبير جئت ! فقال : دبير من لم يجئ . وقيل : إنما سمي بباب الأربعين لأنه كان بالمسجد من داخله اربعون من العبّاد يتعبدون فيه وكان الباب مسدوداً واخبرني عمي ابو غانم — رحمه الله — انه بلغه انه كان به اربعون محدثاً ، وقيل كان به اربعون شريفاً .

والى جانبه مقبرة للشراف العلويين قيل انهم من بني الناصر . والباب الصغير وهو الباب الذي يخرج منه من تحت القلعة من جانب الخندق وخانكاه القصر الى دار العدل ، ومن خارجه البابان اللذان جددهما الملك الظاهر — رحمه الله — في السور الذي جدده على دار العدل ، احدهما يفتح على شفير الخندق ، ويدعى باب الصغير ايضاً . وهو || مسلوك فيه الى ناحية الميدان ؛ والآخر القبلي الذي يقابل باب العراق وهو مغلق لا يخرج منه احد بعد موت الملك الظاهر الا السلطان في بعض الأحيان . وكذلك باب الجبل الذي للقلعة اغلق بعده . [٦٤ ظ]

وكان لحلب باب يقال له « باب الفرج » الى جانب حمام القصر كان الى جانبه القصر المشهور الذي يلي قلعة حلب ، فخربه الملك الظاهر — رحمه الله — .

وكان خارج باب انطاكية على نهر قويق باب يقال له باب السلامة وهو الذي ذكره الواساني (١) في قصيدته التي يهجو فيها ابن ابي أسامة وأولها :

يا ساكني حلب العوا صم جادها صوب الغمامه

وسيأتي ذكره بعد هذا ؛ وعلى خندق الروم ابواب مجددة . أولها :

باب الرابية التي يباع فيها الغلة والتبن خارج باب قنسرين ، والسور اللبن المجدد على خندق الروم من حده .

والباب الثاني المعروف بباب المقام خارج باب العراق من القبلة يسلك فيه الى مقام ابراهيم - عليه السلام - وغيره .

والثالث باب النيرب خارج باب العراق ، وقد ذكرنا انه جدد في ايام الملك العزيز — رحمه الله — . ثم باب القناة وقد ذكرناه ايضاً . »

*
* *

هذا فصل من فصول « بغية الطلب » لم نختره لأنه أهم فصول الكتاب او اوسعها ، وانما اخترناه لأنه نُقل في الدر المنتخب ، وفي ابن خطيب الناصرية وعند الغزي على شكل مضطرب مختلف ؛ وقد حاولنا حين نشرناه أن نطلب الى القارئ ان يوازن بين ما جاء فيه وما جاء في هذه الكتب ليدرك اية اصالة في بغية الطلب تدفعنا الى الحديث عنه والعمل لنشره .

وقبل ان نختم نحب ان نجيب على سؤال وجيه طرحه الكاتب المعروف الأستاذ سامي الكيالي في مجلة الحديث (٢) حول وصول المخطوطة الى استانبول وكيفية خروجها من حلب ؟ والجواب على ذلك يسير اذا عرفنا ان ابن العديم رحل عن حلب فيمن رحل سنة ٦٥٧ هـ حين هاجم التتار ابواب الشام ، فتحمل مع الملك الناصر الى « برزه » ثم سافر الى غزة ومنها الى مصر . ونعرف ان المؤرخ الكبير لقي في مصر حفاوة عظيمة ، وسكن فيها في انتظار النصر ، فقد كان

---

(١) قال ابن الحنبلي في مخطوطة الزبد والضرب بالورقة ٥ظ : « والواساني المذكور هو الذي ينسب اليه حمام الواساني بحلب ، واسمه الحسن ، وكان شاعراً هجاء » .

(٢) العدد ٢ من السنة ٢٦ ، شباط ١٩٥٢ ص ٨٧ .

عسكر المصريين يحاربون التتار ، فلما هزموهم عاد ابن العديم في زيارة قصيرة الى حلب ولكنه رأى يد الخراب والدمار قد اعملت فيها كل ما تستطيع من شناعة الحروب ، فلم يطب له فيها العيش وعاد الى مصر وحمل معه كتبه وأوراقه ، وفيها كتابه « بغية الطلب » . فلما أعجلته المنية ٦٦٠ هـ دفن بسفح المقطم في مصر ، فرقد فيه جسمه وبقيت بين جنباتها كتبه تتنقل من يد الى يد ، فقرأها محمد بن محمد السابق الحموي وخط على اوراقها ما عن له من توقيع وملاحظات سنة ٨٥٦ هـ ، وقرأها السيوطي والمقريزي وغيرهما وكل هذه التوقيعات ما تزال باقية على ظهر الأجزاء وفي طياتها ، تجاور خطوطها خط ابن العديم الذي كتب النسخة كلها بيده .

فلما جاء الأتراك العثمانيون مصر نقل السلطان سليم اكثر هذه الكتب الى القسطنطينية وبقيت في مكتبات ابنائه واحفاده الى ان وقف هذه الأجزاء — كما يقول خاتم الوقف — « سلطاننا الأعظم والخاقان المعظم مالك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين السلطان ابن السلطان الغازي محمود خان وقفاً صحيحاً شرعياً لمن طالع وتبصر واعتبر وتذكر » وهذه العبارة والتوقيعات كلها على هذه الأجزاء ما تزال واضحة مقروءة منذ وقفها السلطان في صدر القرن التاسع عشر للميلاد . فلما سافرنا اليها لم تمنعنا محاسنها ولم تحجب عنا خيراتها فأخذنا بقراءتها وتحقيقها ونشرها وارسالها في الناس ارضاء لروح ابن العديم وإكمالاً لرسالته الخالدة في اذاعة تاريخ حلب ، كما فعل الخطيب البغدادي لبغداد والحافظ ابن عساكر للشام ، والله من وراء القصد .

دمشق

الدكتور سامي الدهان